إشارة الصليب في العهد القديم

ثيوذور روكاس

نقلتها إلى العربية اسرة التراث الأرثوذكسي

في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، يذكر القديس بولس أن "اليهود يطلبون علامة" (١ كورنثوس ٢٢:١)، أي أنهم أرادوا علامة خارقة للطبيعة، مثل قيامة الموتى أو شفاء الممسوسين بالشياطين، ما يجعلهم يؤمنون بالوعظ عن الصليب. لذلك سعوا وراء هذه العلامة الفائقة الطبيعة، متجاهلين وجاهلين كل العلامات والعجائب التي أظهرها الله لهم في الماضي، في كل مرة كانوا يجدون أنفسهم في خطر. بالطبع، لا يمكن أن تكون العلامة التي كانوا يبحثون عنها سوى الصليب الذي هو، من ناحية ، يُشار إليه على مدى العهد القديم بأكمله، ومن ناحية أخرى، كان دائماً حاضراً، يحافظ على شعب الله من الخراب والإبادة.

يوجد عدد كبير جداً من الإشارات المميزة إلى علامة الصليب المكرَّم في العهد القديم، لكننا هنا سنستشهد بستة أمثلة محددة فقط.

العلامة الرئيسية لارتفاع الصليب في تاريخ الشعب اليهودي هي تلك التي قام بها موسى عندما شقّ مياه البحر الأحمر بعصاه بأمر من الله، حتى يتمكن الإسرائيليون من العبور وتجنّب مطاردة المصريين. نجا الشعب وعادت المياه بعد ذلك واجتمعت كما كانت من قبل (خروج ١٤:١-٣١). لهذا السبب، في عيد رفع الصليب المكرّم، ترنم الكنيسة: "إن موسى لما رسم الصليب، ضرب بالعصا مستوية، فشق البحر الأحمر" (إرمس ، الأودية الأولى، قانون السحرية).

عندما وصل الإسرائيليون إلى رفيديم (حوريب)، رسم موسى علامة الصليب مرتين. الأولى عندما ضرب الصخرة ليخرج الماء للشعب العطشان ليشربوا. والثاني عندما رفع ذراعيه وعصاه إلى السماء للصلاة ولتشجيع الإسرائيليين الذين كانوا يقاتلون العمالقة (خروج ١٧:١-١٦). كانت علامة الصليب هي التي أعطت العون للمحاربين الإسرائيليين وشجعت جهودهم لتحقيق النصر، بحسب القديس غريغوريوس بالاماس (PG.133-136). يذكر ثيودوريتوس الكورشي أنه، بصرف النظر عن علامة الصليب، فإن صورة الرب المصلوب قد تم تصويرها مسبقاً أيضاً (PG 80 ، 260-261).

صنع موسى هذه العلامة المقدسة مرة أخرى، عندما قاد شعب إسرائيل إلى أدوم. وهناك أصيبوا بالإحباط وفقدوا إيمانهم بالله، مما أدى إلى أن يرسل الله أفاعٍ سامة ذات لدغ قاتل، ما تسبب بوفيات كثيرة. بعد أن تابوا، أمر الله موسى أن يصنع ثعباناً من البرونز ويرفعه على عمود. كان كل مَن ينظر إليه يُشفى على الفور (عدد ٢١:٤-٩). ومع أن رواية الكتاب المقدس لا تقدم وصفاً تفصيلياً لارتفاع الأفعى، إلا إن القديس غريغوريوس بالاماس يرسم صورة واضحة جداً إذ يقول أن موسى رفع الثعبان أفقياً على العمود الرأسي، مشكلاً ذراعي صليب (PG.133-136). إلى ذلك، تنبأ يسوع المسيح نفسه، في إنجيل يوحنا، عن موته على

الصليب، إذ شبهه بارتفاع الأفعى البرونزية في البرية، قائلاً: "وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ" (يوحنا٣:١٤).

أيضاً في العهد القديم، خلّصت علامة الصليب النبي دانيال والفتية الثلاثة شدراخ وميشاخ وعبدنغو. هؤلاء عاشوا في بابل في زمن السبي. عندما أُلقي الشبان الثلاثة في أتون النار، نجوا بفضل تدخل الله المعجز (دانيال ٣:٢٣)، تماماً كما نجا دانيال نفسه عندما طُرح في جب الأسود (دانيال ٦:٢٣).

بالطبع، في هذه الحالات أيضاً، لا يقدم النص الكتابي صورة إنقاذ الفتية الثلاثة، بل إن صورة خلاصهم وردت على لسان أندراوس الكريتي، الذي أعلن أن الفتية الثلاثة في البداية، ومن ثم النبي دانيال نجوا برفع أذرعهم إلى السماء على شكل صليب (PG 97 ، 1040-1041). هذا التقليد نفسه محفوظ في ترنيمة الكنيسة التي نرتلها يوم أحد رفع الصليب: "إن المعظم في الأنبياء دانيال لما طُرح في جبّ الأسود وقتاً ما وبسط ذراعيه بشكل صليب نجا من افتراسهم بغير أذية مباركاً المسيح الإله إلى الأدهار" (الأودية الثامنة، قانون السحرية).

في العهد القديم، لا يَشار فقط إلى صليب المسيح بل أيضاً إلى أحداث أخرى، مثل ولادته وآلامه وقيامته. لكن الصليب هو الوسيلة التي تمجَّد بها المسيح وانتصر على العدو الشرير، وغلب الموت، وبقيامته جلب البشرية إلى حالة جديدة من الحياة متحررة من قيود الموت والفساد.

على الرغم من أن الصليب كان رمزاً للمَقت والموت في وقت ما قبل المسيح، إذ بحسب ضوابط سفر التثنية، فإن الذين ماتوا على الصليب كانوا يُعتبرون ملعونين (تثنية ٢١:٢٣)، فمن خلال صلب المسيح أصبح رمزاً للانتصار على الموت والمجد والعظمة. لقد فقد الصليب هالة الذمّ والانحطاط والمَقت والإذلال وأصبح تعبيراً عن القداسة والبركة والكرامة والمجد والعظمة.

كيف حدث هذا التغيير الجذري، هذه المعجزة، هذا التحول؟ بطبيعة الحال، بتجسد الابن وكلمة الله: "الكلمة صار جسداً" (يو ١:١) وصلبه الذي من خلاله "مات من أجلنا" (رومية ٥ ـ ٨). "وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ" (فيلبي٢:٨)، "افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا" (غلاطية ٣:١٣).

فتح صليب المسيح وقيامته الطريق إلى الفردوس وأزاح السيف المتقلّب الذي أغلق الطريق إلى شجرة الحياة (تكوين ٣:٢٤). إذا تمعنّا بترنيمة عيد إكرام الصليب، فسوف نفهم الثناء الذي أُغدِق على صليب الرب، إذ يُدعى: "حارس باب الفردوس؛ انتصار الملوك؛ افتخار الكهنة؛ ثبات المؤمنين؛ فردوس البيعة؛ مجد الكنيسة وافتخارها؛ اعتزاز المسيحيين؛ رسالة الرسل الخاصة؛ تاج الشهداء؛ الزينة الثمينة للأنبياء" (غروب أحد إكرام الصليب).

Source: Theodore Rokas. The Sign of the Cross in the Old Testament. Pemptousia. 5 October 2019. https://pemptousia.com/2019/10/the-sign-of-the-cross-in-the-old-testament-2/